﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٥٣﴾ [الأعراف: 53]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـكِـتـاب هـدًى ورحمةٌ لمن أقبلَ عليه وآمـن به، وحرمانٌ وندامةٌ لـمن أعـرض عنه وكفر به

لـمّا ذكَرَ اللّهُ ﷻ أحوالَ الكتابِ، وحالَ مَن يَنتَفِعُ به، أعقَبَ ذلك بتعريضٍ ووعيدٍ لأولئك الّذين لا ينتفعون ولا يؤمنون؛ لِتكونَ الآياتُ جامعةً لوصفِ الكتابِ، ووصفِ مَنْ يتفاعلون معه بالإيمانِ أو بالنِّسيان، ووصفِ مصيرِ كلٍّ، فهو هدى ورحمةٌ لِمَنْ آمَنَ، وحرمانٌ وندامةٌ – بعد فواتِ الأوانِ – على مَن أعرضَ وكَفَر.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾: مِنَ الجذر (أول)، وهو أصلان: ابتداءُ الأمرِ وانتهاؤه، وكلمة "أوَل" في اللُّغة تدور على معنى الرَّجوع، وآلَ يؤول، أي: رجع، وأوَّل الشَّيءَ إلى أهله، أي: أرْجَعه وردَّه إليهم، أو هو رَدُّ الشَّيء إلى الغاية المُرادة منه، عِلْمًا كان أو فِعلًا، وأوَّلَ الكلامَ وتَأوَّله: دَبَّره وقدَّره وفَسَّره، فالتَّأويل: تفعيل مِن أوَّل يُؤَوِّل تأويلًا، أي: تفسير ما يَؤولُ إليه الشَّيء، أو هو تحقُّقُ المآلِ، ووقوعُ العاقبةِ والمصير، والمرادُ هاهنا: حصولُ الوعيدِ الّذي أخبرَ به الكتابُ في المآلِ والعاقبةِ، فيَرونه رأيَ العينِ[1].

2) ﴿نَسُوهُ﴾: مِنَ الجذر (نسي)، وهو أصلان صحيحان؛ يدلُّ

(1) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهري، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أول)، والهرويّ، الغريبين: 1/121.

أحدهما: على إغفال الشَّيء، والثّاني: على ترك الشَّيء، والنِّسيان: ضِدُّ الذِّكر والحِفظ، وأصلُه: زوالُ صورةِ الشَّيءِ مِنَ الذّهنِ، زوالًا يَمنع مِن تذكُّرها، فهو يدلُّ على إغفالِ الشَّيءِ وتَركِه، والنِّسيانُ: التَّركُ، وهو إمّا تركُ الشَّيء على ذُهول وغَفْلة، وذلك خِلاف الذِّكر له، وإمّا أن يكون التَّرك على تَعمُّد، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: 237]، وقولُه: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [التوبة: 67]، قال ثعلبُ: "لا يَنْسى اللّهُ ﷻ، إنَّما معناه: تركوا اللّه فتركَهُم، فلمّا كان النِّسيان ضربًا مِنَ التَّرك وضَعَه موضِعَه، والمرادُ هنا: تركوه إعراضًا وجُحودًا، واستعمالُه هاهنا في التّركِ والإعراضِ مَجازٌ"[1].

3) ﴿شُفَعَآءَ﴾: مِنَ الجذر (شفع)، وهو أصل صحيح يدلُّ على المقارنة بين شيئين، أو هو ازدواجٌ برِقّة؛ إذ إنَّ الشّافِع ينضمُّ إلى المستَشْفِع طالبًا له أو معه، فارتبط به، كأنَّه أزْوَجه، وشفعاء: جمعُ شفيع، وهو الشّافع، وصاحب الشُّفْعَة والشَّفاعة، وأصلُه: "مِنَ الشَّفْع: وهو ضَمُّ شيءٍ إلى مِثله، ومنه الشّفاعةُ؛ لأنّ فيها انضمامَ واحدٍ إلى آخر ناصرًا له، وأكثر ما يُستعمَل في انضمام مَن هو أعلى رتبةً إلى مَن هو أدنى"، "والشّفيع: الوسيطُ بين طرفين، أحدهما أملَكُ للآخَر؛ بغرض استخلاصِ المنفعةِ منه، وإيصالِها للطَّرف الآخَر، وشرطُ الشَّفيعِ أن يكونَ وجيهًا"[2].

4) ﴿وَضَلَّ﴾: مِنَ الجذر (ضلل)، وهو يدلُّ على ضياع الشَّيء وذهابه في غير حَقِّه، أو غيابُ شيء في أثناء شيء؛ حتَّى لا تُمّيز هذا مِن ذاك، وضَلَّ الشَّيءُ: خَفي وغابَ، أو ضاع وهلك، وضَللتَ الشَّيءَ: إذا أخطأتَه في مكانه فلم تهتدِ إليه، وأضللتَه: غَيَّبتَه، والضَّلال والضَّلالة ضِدُّ الهدى والرَّشاد، وكلُّ جائرٍ عنِ القَصْد ضالٌّ، وأصلُه: الغيابُ والعُدولُ، "ويُقال الضَّلال لكلِّ عُدولٍ عنِ المنهج، عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا"[3]، والمرادُ هاهنا: غابَ وعَدَلَ عن نُصرَتِهم شُركاؤهُمُ الّذين افتَرَوهُم مِن دون اللّه.

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (نسا)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسي).
(2) الخليل، العين، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شفع)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/278.
(3) الجوهريُّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضل، ضلل)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/382.

❁ المعنى الإجْماليُّ:

الحقيقة تهدّم كـلَّ مـا أثـاره الـكـافـرون مِـن أوهام

ابتدأتِ الآيةُ ببيانِ حالِ الكافرين الذين يَنتَظِرون تحقُّقَ عواقبِ ما كفروا به مِنَ القرآنِ ووعيدِه، وحينَئذٍ سيتحسَّرون ويتذلَّلون مُضطرين في استجداءِ الشَّفاعةِ لهم، وحين يُدركون يأسَهم وبؤسَهم سيَلهَجون - قانِطينَ - بأنْ يُرَدّوا إلى الدُّنيا؛ طمعًا منهم في تبديلِ أعمالِهم بأعمالٍ أحسنَ منها، وهنالكَ في هذا الموقفِ، لا مُجيبَ لهم ولا جوابَ يصلُح لأمانيِّهم، إلّا تأكيد مصيرِهم بخسرانِ أنفسِهم، فمَنْ يشفع - إذن - لأنفُسٍ خاسرةٍ كاسدةٍ؟! وكيف يُردُّ إلى العمل مَن خَسِر نفسَه وأفناها بموبقاتِ الشِّركِ والكفر؟! كيف يَعملُ ونفسُه في حُكم العَدَم؟! وليسَتْ أنفسُهم هي الّتي خذلتهم فحَسْب، بل غابَ عن إغاثتهم مَن كانوا يُشْركونهم مع اللّه، ويكفرون به لأجلِهم؛ افتراءً منهم وضلالًا.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ التَّعبير بالاستفهام الدَّالِّ على معنى النّفي:

الاستفهامُ على إرادةِ النَّفي أبلغُ مِن صريحِ النَّفي؛ لأنَّه يجمع معنَيَيْن

معنى الاستفهامِ في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ النَّفيُ، وعَبَّر به دون النَّفي؛ لأنَّ الاستفهامَ فيه زيادةٌ على معنى الخبرِ الحاصلِ بالنَّفي، إذ يتضمَّنُ الاستفهامُ معنى الوعيدِ بما أفاده مِنَ التَّعجيبِ والاستِهْجانِ مِن حالهم، وفي إتيان النَّفي على صورةِ الاستفهامِ، استنطاقٌ لهم إنْ كانوا ينطقون، ولم يجئْ هذا الاستنطاقُ بصيغةِ الخطابِ: (هل تنظرون)؛ إعراضًا عنهم كأنّهم ليسوا أهلًا للخطاب، وجريًا كذلك على أسلوبِ الغيبةِ في: ﴿جِئْنَٰهُم﴾ قبله.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّهكُّميَّةِ في التّعبير بالنَّظر في قولِه: ﴿يَنظُرُونَ﴾:

معنى النَّظر في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ الانتظارُ، وآثَره على الانتظار، فلم يقُل: (ينتظرون تأويلَه) وهو المقصود؛ للدِّلالة على

انتفاءِ قَصْدِهم[1]، فليس غرضَهم الانتظارُ، فهم في حُكْم الانتظارِ لا في حقيقته، فإطلاقُ الانتظار هنا استعارةٌ تهكُّميَّةٌ؛ شَبَّه حال تمَهُّلِهم إلى الوقت الذي سيَحِلُّ عليهم فيه ما أوعدَهم به القرآنُ بحال المنتظرين، وهم ليسوا بمنتظرين ذلك، إذ هم جاحدون وقوعَه، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ [محمد: 18][2]، والتّعبير بـ (نظر) مُشْعِرٌ بأنّ الوعيدَ سيباغِتُ أنظارَهم على حين غفلةٍ منهم، فلو انتظروه حقيقةً لَعَمِلوا له.

الإخبارُ عن منتظِرِ الوعيدِ، وهو لا يقصدُه، إخبارٌ عن حُمْقِه وغفلتِه

فوائدُ حذفِ المضافِ في قولِه: ﴿تَأْوِيلَهُۥ﴾:

حُذف المضافِ من قوله: ﴿تَأْوِيلَهُۥ﴾، الواردِ في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾، والتَّقدير: إتيانُ تأويلِه، أو عاقبةُ تأويلِه، أو ظهورُ تأويلِه؛ لفوائد عديدة: الأولى: الإيجازُ، فأهمل في الذِّكر ما هو معلومٌ في الفِكر، والثّانية: تسريعُ إسماعِ الوعيدِ لهم، فالتفتَ عن الحدث؛ وهو الظُّهورُ والانكشاف، انشغالًا بالحادث؛ وهو التَّأويلُ ذاتُه، إسراعًا بهم لمُلابستِه والدُّخولِ في طَيِّه، وإقصارًا للمسافة بينهم، وبينَ ما ينتظرُهم مِن سوءِ العاقبةِ، والثّالثة: إفادةُ عموم المُتوقَّع؛ فلو ذُكِرَ المضافُ لاختصَّ به، لكن لمّا حُذِف ذهب الفكرُ في ميادين التَّوقُّع.

الإيجازُ اللَّفظيُّ، وتعميمُ التَّوقُّعِ، وتسريعُ إسماعِ الوعيدِ

عِلَّةُ إضمَارِ المُضَافِ إليه في قولِه: ﴿تَأْوِيلَهُۥ﴾:

آثر النَّظمُ إضمارَ ذِكْرِ الكتابِ في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾، فلم يقُل: (هل ينظرون إلّا تأويلَ الكتاب)؛ استغناءً بالظّاهر السّابق في قوله: ﴿بِكِتَٰبٍ﴾، واكتفاءً بدلالة المضاف على ما يُغني عنِ الذِّكر، فإنَّ لفظَ (تأويل) لا يلتبس معه إرادةُ غيرِ الكتاب، وإيجازًا لمقامِ الوعيدِ الكائنِ في جملة الاستفهامِ

مَن لم يؤمنْ بتأويلِ الكتابِ المسطورِ؛ سيُعذَّبُ بعد أخذِ الكتابِ المنشورِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/411.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/154.

الإنكاريِّ النّافية، وغَرضُ الإيجازِ الدِّلالةُ على خُلوص الوعيدِ لهم، وقَصْرُه عليهم.

القَصْرُ الإضافيُّ في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾:

نوعُ القصرِ في قولِه تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ المفهوم مِن ﴿هَلْ﴾ مع الاستثناء إضافيٌّ؛ أي: بالنِّسبَة إلى غَيرِ ذلك مِن أغراضِ نِسيانِهم وجُحودِهم بالآياتِ[1].

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ في: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾:

قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾، بيانٌ لقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾؛ أي: ذلك التّأويل "الّذي سيظهر يوم القيامة، فالمرادُ باليوم يوم القيامة، بدليل تعلُّقه بقوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾، فإنَّهم لا يعلمون ذلك، ولا يقولونه إلّا يوم القيامة"[2]، وجملةُ: ﴿يَوْمَ يَأْتِى﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ممّا قبله، واقعٌ جوابًا لسؤالٍ مُقدَّرٍ عنه، كأنّه قيل: "فهل إذا جاءَ هذا اليوم، ووقعَ بهم الوعيدُ الّذي أوعدهمُ اللّهُ به، أينفعُهم إيمانٌ أو يُقبلُ منهم عملٌ؟"[3]؛ فأُجيبَ: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ "التَّحسُّرُ والإذعانُ حيثُ لا ينفع، والتَّصديقُ والإيمانُ حين لا يُقبَل"[4].

عنصرُ الحوارِ الضِّمنيّ مُؤثِّرٌ في المُخاطَب بما يُوزِّث الاستجابة

سرُّ تقديمِ ﴿يَوْمَ﴾ على عامله:

قَدَّم اليومَ في قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾، ثمَّ أتبعَه بالعامل فيه وهو: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾؛ اهتمامًا به[5]، وترهيبًا منه، وهو قولُه تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾؛ لأنَّ السّياقَ وعيدٌ، وتمكينًا لاستحضاره وذِكره في النُّفوس، وتخصيصًا له؛ لأنَّ تأويلَ الكتابِ لن

الأزمنةُ ظروفٌ للحوادث، ووِعاءُ الشَّيءِ له حقُّ التَّقديم عليه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/154.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/154.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ للقرآن: 4/410.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/411.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/411.

يكونَ إلّا فيه، وهذا غرضٌ معنويٌّ، ولغرضٍ لفظيٍّ أيضًا؛ وهو انتظامُ التَّوازنِ الصَّوتيِّ، وتحقُّقُ خِفَّةِ النُّطقِ والأداءِ في التَّركيب، بعكس ما لو أخَّره؛ فقال: (يقول الّذين نسوه من قبل يوم يأتي تأويلُه)؛ لكان ثِقَلٌ وعدمُ أريحيَّةٍ في النُّطق.

بلاغةُ المجازِ العقليِّ في إسنادِ الإتيانِ إلى التَّأويل في قوله: ﴿يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾:

تصويرُ الوعيدِ بزائرِ الشُّؤمِ الذي يأتي الجاحدين بما يسوؤهم

إسنادُ الإتيانِ إلى التَّأويل، إسنادٌ مجازيٌّ، علاقتُه اللُّزوم، فإنَّ المرادَ بإتيانه: انكشافُه وظهورُه ظهورًا دالًّا "على صدقِ القرآنِ، فيما أخبرهم وما توعَّدهم"[1]، وظهورُه المراد لازمٌ عن إتيانه، وفي التَّعبيرِ بالإتيان تصويرٌ للجانب الحسّيِّ المنظورِ مِنَ الوعيد، وأنَّه يَحْضُرهم حضورَ الزّائرِ الآتي، القادمِ بما يَسوء.

بلاغةُ الإظهارِ بالموصولِ في قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ﴾:

عنوانُ المشركين يومَ القيامةِ نسيانُ الكتاب

يرجعُ ضميرُ ﴿نَسُوهُ﴾ إلى المقصود بقوله: ﴿يَنظُرُونَ﴾ في ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾؛ وهم المشركون، وبناءً على ذلك، كان مُقتَضى الظّاهر أن يُقال: (يوم يأتي تأويله يقولون) أي: (الّذين ينظرون)؛ بدلاً من ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ﴾ فعُدِلَ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ، والتَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ، فقال: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ﴾؛ تسجيلًا ونعيًا عليهم بنسيان ما لا يَحْسُنُ نسيانُهُ، وبإهمالِ العملِ به، ولِلْإلْفات إلى أنَّ النّاسين همُ المُتكلِّمون بالأعذار والأماني في هذا اليوم لا غيرُهم[2]، وردًّا على قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾.

سرُّ التَّعبيرِ بالنِّسيانِ عنِ التَّرك:

توريثُ الحَسرةِ للجاحدين، مِن أساليبِ القرآنِ في وعيدِ الغافلين

عبَّرتِ الآيةُ بمفردةِ النِّسيان في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾، وسرُّ التَّعبيرِ بالنِّسيان؛ لتشبيه تَرْكِهم الكُلّيِّ عن قَصْدٍ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/155.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/155.

بمَن نَسيَ أمرًا مُهمًّا، فهو استعارةٌ في التَّرك، والاستعارةُ أبلغُ لما فيها مِنَ الحَسْرة والنَّدامة والتَّقريع على النِّسيان، أو أن يكونَ النِّسيانُ كنايةً عنِ التَّركِ؛ لأنَّ التَّركَ لازمٌ مِن لوازم النِّسيان.

سرُّ استعمالِ حرفِ ﴿قَدْ﴾ في قوله: ﴿قَدْ جَآءَتْ﴾:

اعترافُ الجاحدِ بعدَ فواتِ الأوان؛ ذلٌّ نفسيٌّ، وإيمانٌ غير مقبول

صدَّر النّاسون كلامَهم بأداة ﴿قَدْ﴾ التَّحقيقيَّةِ؛ إغراءً على تحقيق مُناهم في شفاعةِ الشَّفيعِ؛ لأنَّ عادةَ الجاني أن يستعطفَ القاضي، باعترافٍ مُؤكَّدٍ بعدَ يأسِه مِن جدوى إنكاره، فلهذا الحرفِ رسالةٌ بلاغيّةٌ؛ وهي تصويرُ الذُّلِّ النَّفسيِّ في الاعترافِ المؤكَّد.

توجيهُ تخصيصِ قول النَّاسين دون غيره مِن أقوالِهم بالذِّكر:

مُلابسةُ الواقعِ بعدَ إنكارِه، مُؤذنة بالاعترافِ الصَّريح

ذكرتِ الآيةُ الكريمةُ مَقولَ قولِ الّذين نَسوا الكتابَ يومَ القيامة: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾، ولهؤلاء أقوالٌ كثيرةٌ سوى المذكور، سواءٌ أذُكِرت في القرآنِ أم لم تُذْكر، فلماذا آثرَ القرآنُ ذِكْرَ قيلِهم هذا دون سواه؟ والجواب: أنَّه توطئةٌ لما بعدَه مِن كلامهم في طلبِ الشَّفاعة: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾[1]، وفيه: أنَّ ملابسةَ الواقعِ بعدَ إنكارِه، مُؤذنَة باعترافٍ مِن جنسِه، فيَستحيلُ الإنكارُ تصديقًا، وهو تأييدٌ للواقع الحاصل، فإنَّ الحقَّ الّذي جاءَت به الرُّسلُ هو تحقُّقُ تأويلِ الكتابِ الذي حَقَّ عليهم، فهم ناطقون بما هم مُتلبِّسون به.

بلاغةُ الكنايةِ عنِ الحسرةِ والنَّدمِ:

الإخبارُ عنِ الحسرةِ قبلَ وقوعِها مِن كمالِ عنايةِ الله بعبادِه

قولُه تعالى على لسانِ الجاحدين: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ كنايةٌ عن حسرتِهم، واستحواذِ الأسى عليهم، وجاءَ تحسُّرهم بصيغةِ الخبرِ دونَ الإنشاءِ، من مثل: (يا حسْرتنا)، و(يا ويْلنا)؛ للجمع بين "الإقرارِ بخطئهم في تكذيبِ الرُّسل، وإنشاءِ الحسرةِ

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/367.

على ذلك، وإبداءِ الحيرة في ماذا يصنعون؟"[1]؛ ففيه إخبارٌ بحسرتِهم قبلَ الحسرة، وبيانٌ كاشفٌ عن ندمهم قبل النَّدامة؛ ليتداركوا ما هم فيه مِنَ الهلاكِ المُحقَّقِ في الدُّنيا، وهذا في غايةِ الرِّعايةِ وجليلِ العنايةِ.

بلاغةُ إضافةِ ﴿رُسُلُ﴾ إلى: ﴿رَبِّنَا﴾:

آثرَ القائلون ذِكْرَ: ﴿رُسُلُ رَبِّنَا﴾، دون الاقتصارِ على ذِكْرِ مجيءِ الحقِّ؛ فلم يقولوا: (قد جاءَنا الحقُّ) ونحوه؛ لغرضِ الاستعطافِ، وطلبِ الإحسانِ، فإنَّهم في مقامِ الطَّمعِ في الشَّفاعة، وفي مقامِ الاعتذارِ والاعترافِ.

لا ينفعُ الاعترافُ بعد صدورِ الأمرِ ووقوعِ الحتمِ

والتَّعبيرُ بالرُّبوبيَّة، وإضافتها إلى ضمير المُتكلِّم الجمعيِّ، اعترافٌ بالعناية الرَّبّانيَّة، والتَّربيةِ الحَكيمةِ، والرِّعايةِ الإلهيَّة، وإيرادُ قيلهم - الذي هو مستقبلٌ غيبيٌّ - تعريضٌ بهم بقيلهم، ونَعْيٌ عليهم بتفضُّل الله عليهم، بمُقتضَى ربوبيَّتِه، بإرسالِ رسلِه إليهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفاءِ في ﴿فَهَل﴾:

في إردافِ استعطافِ الجاحدين، وتحسُّرِ المُكَذِّبين، طَلَبَ الشَّفاعةِ والرَّدَّ إلى الدُّنيا؛ لتدارُكِ أعمالِهم، وتفريعِ ذلك بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾، دليلٌ على تعجّلهم المدفوعِ بفَزَعٍ وخَوْفٍ مِنَ القادِم؛ لمعرفتهم بسوء حالهم، فمَن ساءَ فِعْلُه ساءَ ظنُّه بنفسه، ولذا؛ طفقوا في إنشاءِ الاستِشْفاعِ فورَ التَّمهيد له، بالاعتراف بمجيء الرُّسل بالحقِّ إليهم.

مَـن ساءَ عملُه في الدُّنيا، ساءَ ظنُّه بنفسِه في الآخِرة

بلاغة الاستفهام في قوله: ﴿فَهَل لَّنَا﴾:

دلَّ استعمالُ حرفِ (هل) في قوله تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾ على التَّمنّي، وأوثِر استعمالُه بدلًا مِن استعمالِ أداةِ التَّمنّي الصَّريحةِ

التَّمنِّي بطريق الاستفهام دليلٌ على تمكُّنِ الاعترافِ بعظيم الجُرم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/155.

(ليتَ) ونحوها؛ استتمامًا لأُسلوب التَّعطُّف والتَّذلُّل، وتوريةً منهم، وتخشُّعًا، واستخفاءً في الطَّلب، كَمَن يَطلُب وهو خَجِلٌ أن يطلبَ، فلا يَقْدِر على التَّصريح، فيقع طلبُه مِن طَرْفٍ خَفيٍّ، ويُعَزِّز ذلك قولُه تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾ [القلم: 43]، وقولُه تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۚ﴾ [الشّورى: 45]، وقولُه: ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ﴾ [غافر: 18].

يُحتمَلُ حَمْلُ الاستفهامِ على الحقيقةِ، على أن يكونَ قالَهُ بعضُهم لبعض؛ طلبًا للخلاصِ مِن ذلك المأزقِ، وتلك الفاجعةِ، على أن يكونَ هذا القولُ صادرًا عنهم في ابتداءِ رؤيةِ ما يُهدِّدُهم، قبلَ أن يوقنوا بانتفاءِ الشُّفعاءِ المَحْكيِّ عنهم في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ١٠١﴾ [الشّعراء: 100 - 101].

يُحتمَلُ حَمْلُ الاستفهامُ على النَّفي؛ لبيانِ شدَّة يأسهم مِنَ النَّجاة

ويُحتملُ أن يكونَ الاستفهامُ مُستعمَلًا في النَّفي؛ أي: (فما لنا مِن شُفعاء)، على معنى التَّحسُّرِ والتَّندُّم[1]، وإظهارِ اليأسِ الشَّديدِ. وبلاغةُ استعمالِ (هل) في معنى النَّفي؛ لبيانِ ما يَجول في نفوسهم مِنَ الاضطرابِ والحَيْرة.

سرُّ دخولِ (هل) على الجملة الاسميَّة، وتقديمُها على الفعليَّة، والتَّغايرُ بينهما:

الشَّفاعةُ أصلٌ لبُعدِها عنِ الاستحالة، والرَّدُّ فَرْعٌ لقُربِه مِنَ الاستحالة

حرف (هل) مِنَ الحروفِ المُشْتَرَكَةِ الّتي تدخلُ على الأفعال والأسماء، لكنَّ غالبَ دخولِها على الأفعال، وإنْ دخلت على الاسم فلِنُكْتةٍ بيانيَّةٍ، كما في قولِه: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾، ونكتةُ ذلك: أنَّ دخولَها على الاسميَّة يُشعِر بأنَّ طلبَ الشُّفعاءِ هو الأصلُ في تَمنّيهم؛ لأنَّه أمرٌ مُستقبليٌّ، وأمّا طَلَبُ الرَّدِّ إلى الدُّنيا فهو مُتفرِّعٌ عليه؛ لأنَّه مُستحيلٌ وقوعُه، بخلافِ طلبِ الشُّفعاءِ، فإنَّ إمكانيَّةَ وجودِهم أقربُ إلى الحُكْمِ العقليِّ، فقُدِّم الأصلُ الأبعدُ عنِ الاستحالةِ، على الفَرْعِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/156.

الأقربِ للاستحالةِ، ودخلَت (هل) على الاسميّة لبيانِ هذه النُّكتَةِ، وهذا يدلُّ على استحضارِهم أساليبَ النَّجاةِ في ذلك اليوم، ممّا يورثُ مزيدَ خوفٍ ورهبةٍ؛ لأنَّه كاشفٌ عن طبائع القوم في طلبِ الحيلةِ للنَّجاة، ولا يكون ذلك إلّا من علّام الغيوبِ سبحانه[1]. والتَّغايُر بينَ اسميَّةِ الأولى وفعليَّةِ الثّانية؛ لتصويرِ التَّغايرِ في عنديّات بواطنِهم، مِنَ الأمانيّ والأطماع، وفيه إشارةٌ إلى ضَعَةِ نفوسِهم في إيثار عملِ غيرِهم لأجلِهم على عملهم لأنفسهم؛ إيثارًا لوازعِ الاعتماديَّةِ على وازعِ الكسبِ الذّاتيِّ.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَّنَا﴾ وتَكرارِه:

تصويرُ حالِ المُكذِّبين في الآخرةِ، كافٍ في الاتِّعاظِ والاعتبار

وقعَ تَكرارُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَّنَا﴾ وتقديمُه، في قولِه تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾، ونُكتةُ ذلك: بيانُ العنايةِ، ومزيدُ التَّخصيصِ بمتعلَّقِ الشَّفاعةِ، وهي الأنفسُ، فالمكذِّبون في الدُّنيا، المُصدِّقون في الآخرةِ، قدَّموا ما يحرصون على نجاتِه في الآخرةِ، فهُم لا يفكِّرون إلّا في نجاةِ أنفسِهم، فالتَّقديمُ لبيانِ حالِهم المزرية، الّتي تطلُبُ النَّجاةَ مِنَ الذِّلَّة والمهانة، وكُرِّرَ ذِكْرُ ذلك مع الاستغناء عنه؛ لبيانِ حالِهم المضطربةِ، وواقعِهم المرذولِ.

نُكَاتُ إيثارِ الجمعِ في قولِه: ﴿شُفَعَآءَ﴾ على المفردِ:

إمَّا لغرضِ التَّوزيعِ، أو عدمِ كفايةِ الواحدِ، أو الطَّلبِ في الزِّحامِ

جاء لفظُ الشُّفعاءِ بصيغة الجمعِ في قوله تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ لمجموعةٍ مِنَ النِّكاتِ المحتمَلة:

إمّا للتَّوزيع؛ أي: باعتبار توزيع الشُّفعاء على جماعة المُستشفعين، وإمّا لأنَّ المقامَ "مقامٌ لا يشفع فيه إلّا الشُّفعاء، لا الشَّفيع الواحد"[2]؛ فكأنَّ الكافرَ يعلمُ أنَّ جريرةَ الكُفرِ لا تكفيها شفاعةُ واحدٍ، بل يحتاج إلى جماعةٍ متزاحمةٍ مِنَ الشُّفعاء، وإمّا "لدخولهم في جملةِ النّاسِ في

(1) أشار إلى هذه النُّكتة الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/367.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/228.

الشَّفاعة العظمى لفَصْل القضاءِ؛ ثمَّ سبَّبوا عن ذلكَ تحقيقَ كونِهم لهم؛ أي: بالخصوص؛ فقالوا: ﴿فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾؛ أي: سواء كانوا مِن شركائنا الّذين كنّا نتوهَّمُ فيهم النَّفعَ، أو مِن غيرهم؛ ليُغْفَر لنا ما قَدَّمنا مِنَ الجرائم"[1]، ففي الجمع دليلٌ على وجود شُفعاء يشفعون للنّاس، وهم يرغبون أن ينضموا لتلك الأفواجِ المَشْفوعِ لهم.

دلالةُ استعمالِ حرفِ ﴿أَوْ﴾، ونكتتُه في هذا السِّياق:

عطفَت ﴿أَوْ﴾ الجملةَ الفعليَّةَ: ﴿نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾ على الجملة الاسميَّة: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾[2]، وأفادَتْ ﴿أَوْ﴾ معنى التّخيير؛ أي: لا طريقَ لنا إلى الخَلاص ممّا نحن فيه إلّا أحَدُ هذَين الأمرين، ونكتةُ استعمال ﴿أَوْ﴾ على معنى التَّخيير؛ لتقرير استمرارِ حسرتهم وبؤسِهم، وأنَّهم صاروا بمحلٍّ لا حيلةَ لهم فيه إلّا التَّوسُّلُ بالأماني، وعطفُ البدائلِ الأكثرِ استحالةً عليها، وهي حيلةُ مَن لا حيلةَ لهُ، والعياذ باللّه.

فـقـدان حيلة أهـل الـكـفـر يـوم القيامة، وبـقـاؤهـم في الـحـسـرةِ والبؤسِ

نكاتُ تقديمِ طلبِ الشَّفاعةِ على الرَّدِّ إلى الدُّنيا:

قُدِّم في الآية طلبُ الشَّفاعةِ على الرَّدِّ إلى الدُّنيا، مِن باب تقديم المِنحةِ على العَكلِ[3] المبذولِ، فالشَّفاعةُ بلا مقابلٍ، والرَّدُّ فيه عناءٌ وبذلٌ، وفي تقديم الشَّفاعة نكاتٌ عدَّةٌ:

فَـقْـدُ الأمـلِ، وثباتُ اليأسِ، عنوانُ المُكذِّبين في القيامةِ

الأولى: بيانُ فقدِ الأملِ، فقُدِّمَ الأقربُ منالًا على الأبعدِ منالًا؛ إذِ الشَّفاعةُ ممكنةٌ فيما يتصوَّرُه العقلُ، بخلاف الرَّدِّ فإنَّه أبعدُ، فهم طلبوا الأقربَ قبلَ الأبعد، ولا شيءَ على اللّه مستحيلٌ.

الثّانية: إلْفاتٌ إلى خِسَّة نفوسِهم، وقلَّةِ حيائِهم في إيثارِهم النَّجاة من غير عمل، وطمعِهم في الشَّفاعةِ من غيرِ سابقِ إحسانٍ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/412.
(2) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/337.
(3) تقول: عكلتُ المتاع أعكُلُه، بالضمّ، إذا نَضَدْتَّ بَعْضَه على بعض، يُنظر: الأزهري، الصحاح: (عكل).

الثّالثة: ذِكرُ البديلِ الأكثر استحالةً يُنبئ بوقوعِهم في اليأس، فالجملة الثّانية وهي طلبُ الرَّدِّ إلى الدُّنيا، بمثابة تعلُّقِ الغريقِ بقشَّةِ سرابٍ.

الرّابعة: تعريضٌ بمسلكهم في الشِّرك الّذي اعتادوه واعتقدوه في الدُّنيا، مِن "أنَّ النَّجاةَ عند الله، وكلَّ ما يُطلَب منه إنَّما يكون بواسطة الشُّفعاء عندَه، وعندما يتبيَّن لهم الحقُّ الّذي جاءَت به الرُّسلُ، وهو أنَّ النَّجاةَ والسَّعادةَ إنَّما تكون بالإيمانِ الصَّحيحِ والعملِ الصّالحِ، ويعلمون هنالك أنَّ الشَّفاعةَ لله وحدَه، فلا يشفعُ أحدٌ عنده إلّا بإذنه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾، يتمنَّون لو يُرَدّون إلى الدُّنيا فيعملوا فيها غيرَ ما كانوا يعملون في حياتهم الأولى"[1].

دلالةُ تتابعِ الفاءاتِ في: ﴿فَهَل﴾، و﴿فَيَشْفَعُواْ﴾، و﴿فَنَعْمَلَ﴾:

نُطْقُ الألسنِ في الظّاهر، ترجمةٌ لمعاني الأنفسِ في الباطنِ

تتابعتِ الفاءاتُ في قوله تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾؛ لتصويرِ اللَّهفةِ والفَزَعةِ في نفوسِ المُكذِّبين، وللدّلالة على ضيقِ الوقتِ، بل ذهابِه، واستحضارِ فواتِ فرصةِ النَّجاةِ، وضياعِ الأملِ، فهو عبارةٌ عن وصْفِ شعورِهم بالغَرقِ في بحرِ اليأسِ، وتحقُّقِ الهلاكِ.

بلاغةُ الإيجازِ في حذف بعضِ المُتعلّقاتِ:

الفَزَعُ واليأسُ يُولِّدانِ عُسْرَ النُّطقِ، فلا يُنطَقُ إلّا بالضَّرورياتِ المُنجيات

آثَرتِ الآيةُ الإيجازَ في عدم ذِكْرِ بعضِ المُتعلّقات، إذ تقدير الآية: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ في إزالةِ العذابِ، أو نُردّ إلى مكان العمل فنعملَ صالحًا غير الذي كنّا نعمله؛ مِنَ الجُحود واللَّهو واللَّعب وأعمال الدُّنيا[2]؛ فحَذفَ مُتعلّقاتِ الطَّلبِ مراعاةً للمَقام، وتنبيهًا على مُقتضَى الحال، فإنَّ المقامَ بين يَدَي مَن عَنَتْ له الوجوه،

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/394.
(2) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 5/67.

وحالُ الطّالبِ أنَّه فزِعٌ يائسٌ، قلَّما يستجمع فيه المتكلِّم مَنطِقَه، فالكلماتُ على قدرِ الحاجاتِ، والإيجازُ أجمعُ للصَّواب، وأوثقُ له، وحسراتُهم قيَّدَتْ ألسنتَهُم، فلا ينطقون إلّا بقَهْرِ المَذَلَّةِ والضّيقِ، ولولا إرادةُ الخلاصِ ما قَدَروا على النُّطق طَرْفةَ عينٍ؛ من هولِ ما يلابِسونه ويغشاهم، فحصلَ الاكتفاءُ بالقَدْرِ الضَّروريِّ مِنَ الكلامِ، والاقتصارِ على ما يَصْلحُ الإخبارُ به، ولكَ أن تنظرَ في الإطنابِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: 18] جوابًا لقولِه تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه: 17]؛ لتدركَ الفرقَ بينَ المقامين.

دلالةُ التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِى﴾، وإيثاره على (ما):

أمور الدِّين مقصودة في التّعيين، لبيانِ ندم المُفَرّطينَ عليها

عُبِّر بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ للتَّعيين، والنَّصُّ على المراد بالصِّلة في قوله: ﴿ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾، وهو ما كانوا يعملونه من أُمور الدّين، بدليلِ قرينةِ السّياق في قولهم: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[1]؛ أي: "حتَّى نعملَ غيرَ ما كنّا نعملُه؛ حتَّى نوحِّدَ اللّه بدلًا عن الكفر"[2].

بلاغةُ حذفِ أوصافِ العملِ في قوله: ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾:

خلُوّ أعمالِ المشركين مِنَ الصّلاحِ، وامتلاؤها بالسُّوءِ، عِلّةُ الفرارِ عن وصفِها

حُذِفَ مُتعلَّقُ العملِ في قوله: ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾، فلم يقُل: (فنعمل صالحًا غيرَ العملِ السَّيءِ الَّذي كنّا نعمل)؛ مراعاةً لقرينةِ سؤالهم الرَّدَّ إلى الدُّنيا، فإنَّ الرَّدَّ إلى دار التَّكليف هو لأجلِ استبدالِ عملٍ بعملٍ، ولا يكون البَدلُ إلّا لغرضِ إزاحةِ عملِ السُّوءِ بعملِ الصّالحات، فلمّا كان هذا جليًّا في مفهوم الرَّدِّ، استَغنى عن ذِكْره. فإن قيل: سؤالُ الرَّدِّ لا يَلْزم عنه استبدالُ سَيِّءٍ بصالح، بل ربَّما كان سؤالُهم الرَّدَّ لأجلِ الاستزادةِ من عملٍ صالحٍ؟ قلتُ: لو كان لهم عملٌ صالحٌ لاستشفعوا به واحتجّوا، فهم أحوجُ إلى ذكر ذلك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/157.
(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 9/139.

لو كان لهم، فضْلًا عن أنَّ السّياقَ يَنفيهِ، ويُثبِتُ تكذيبَهم وجُحودَهم بالكلّيَّةِ، فأنَّى يَسْلمُ هذا الاحتمالُ، وأيضًا: لغَرَضِ الإعراضِ عن ذِكْر ما يُستحيا مِن ذِكْره، فإنَّهم لو صرَّحوا بالمُتعلَّق، فقد أشهدوا على أنفسهم أنَّهم لم يعملوا صالحًا، فيكونُ حينَئذٍ تسجيلًا منهم على أنفسهم بعدم أهليَّتهم واستحقاقِهم لجوابِ سؤالهم، وهو ما يخالف مقصودَ مَن يسأل حاجةً لنفْسِه.

إيثارُ التَّعبير بالمضارع في قوله: ﴿فَنَعْمَلَ﴾ على الماضي:

إتـقـانُ صَـوْغِ الـحِـيـلـةِ عند سؤالها

عَبَّر بالفعل المضارعِ في قولِه: ﴿فَنَعْمَلَ﴾؛ لبيانِ إتقانِ المشركين صوغَ حيلتهم عند سؤالها، وهو إشعارُ السّامعِ أنَّ للسّائل حُجَّةً في سؤاله، وأنَّه ما مِن مانعٍ لابتغائها، ولذا عَبَّر عنِ الماضي بالمضارع في حقِّ الفائتِ القديمِ مِنَ الأعمالِ؛ إيهامًا بالقرب وعدمِ البُعد، فأوانُها قريبٌ، وما قَرُبَ أوانُه صحَّ تداركُه. ويجوز أن يكونَ إقرارًا منهم على أنفسهم بالاعتراف والاعتذار، في أنَّ ما عملوه كان عادةً لهم متجدِّدةً، مرَّة بعد مرَّة، ومستمرَّةً آثارُها لم تنقطعْ، فعبَّروا بالمضارع إغراءً على تحقيق مبتغاهم، في أن يُصلحوا ما كان منهم؛ ليقطعوا عنه صِفةَ بقائِه في الأثر والعاقبة.

موقعُ قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ ممَّا قبله:

خُـسْـرانُ الـكـافـريـن هو الـمُـتـحـقِّـقُ، ولـو أفـرطـوا في التَّوسّلِ

قولُه تعالى: ﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ كلامٌ مُستأنفٌ مسوقٌ لتقريرِ الإجابةِ عنِ الاستفهامَين السّابقين[1]، وهو استئنافٌ في معنى التَّعليل لما قبله، فسيق مساقَ الاعتراضِ عليهم في سؤالهم أحدَ الأمرين: الشَّفاعة أو الرَّدَّ إلى الدُّنيا، كأنَّه قيل: (كيف يسألون هذا السُّؤال؟)، ثمَّ ابتدأ فأجاب: ﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾، أو أن يكونَ استئنافًا ابتدائيًّا تذييليًّا[2].

(1) درويش، إعراب القرآن: 3/365.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/157.

بلاغةُ التَّعبيرِ في قوله تعالى: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾:

التَّعبيرُ بخسارةِ الأنفسِ في قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ يُحمَلُ على ثلاثةِ توجيهاتٍ بيانيَّةٍ، وهي:

الاستعارةُ تُصَوِّرُ حالةَ الضَّياع بعد الفوات

الأوَّل: الاستعارة، فاستُعيرت خسارةُ الأنفسِ في إضاعةِ أسبابِ النَّفعِ وفقدانِها[1]، وغلبَ إطلاقُ الخسارةِ على مَن فقَدَ رأسَ مالِه، أو عَجَزَ عن استعادةِ كَسْبِه؛ لفقدانِه القدرةَ أيضًا، فالاستعارةُ في التَّعبير بالخُسران تُصوِّرُ حالةَ العَدَم والضَّياع الَّتي صاروا إليها مِن جميع الوجوه، معَ استنفادِهم وسائلَ الاستدراكِ والاستصلاحِ.

النَّفسُ هي سببُ الأعمالِ ووعاؤه، فإنْ فُقِدَت خَسِر صاحبُها

الثّاني: المجازُ المُرسَل، فالنَّفْسُ هي وعاءُ الأعمال، ومحلُّ عائدها مِنَ الثَّواب والعقاب، وهي آلةُ اكتسابِ الخير والشَّرِّ، ففي التَّعبير بخُسرانها تصويرٌ لانقطاعهم التّامِّ عن عوائدِ الخيرِ؛ لفقدانِهم سببها وآلتِها، وإذا بطلَ السَّببُ انعدمَ المُسَبَّب، وخَرابُ المَحلِّ مُؤذِنٌ بفسادِ الحالِ، فهو مجازٌ مُرسَلٌ، علاقتُه السَّببيَّةُ، أطلقَ السَّببَ، وهي النَّفْس، وأرادَ المُسَبَّبَ، وهو ما ينتج عنها.

زوالُ القُدرةِ لازمٌ عن خُسرانِ الأنفس

الثّالث: الكناية، فهو كنايةٌ عن زوالِ القُدرةِ في تحصيلِ ثوابِ العملِ؛ لأنَّ زوالَ قُدْرتِهم لازمٌ عن خُسرانِ أنفسِهم، وهو عبارةٌ عنِ الفَوْتِ والانفضاضِ.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّهكُّميَّةِ:

التَّهكُّمُ بما يَصدُرُ عنِ المُتهكَّمِ به أبلغُ مِن إنشائه ابتداءً

استُعيرَ الضَّلالُ في قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾؛ للعَدَم، على طريقة التَّهكُّم، فقد شَبَّه عَدَمَ شفعائِهم المزعومين بضَلالِ الإبلِ عن أربابها؛ تَهكُّمًا بهم، وهذا التَّهكُّمُ قد روعيَ فيه محاكاةُ ظنِّهم يومَ القيامة، الصّادر عنهم في قوله تعالى قبلَه: ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ [الأعراف: 37][2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/157.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/158.

تردُّدُ ﴿مَا﴾ بين المصدريَّة والموصوليَّة:

إن كانت ﴿مَا﴾ بمعنى اسم الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾؛ فإسنادُ الضَّلالِ إلى ذواتِ شُفعاء المشركين ومعبوداتهم الباطلة، فالفاعلُ الشُّفعاءُ، والمعنى: ضلَّ الشُّفعاءُ المُفتَرَون. وإن كانت ﴿مَا﴾ مصدريَّةً؛ أي: ضلَّ افتراؤهم[1]، فالفاعلُ الافتراءُ نفسُه، والمعنيانِ صحيحان، إلّا أنَّ الظّاهر في الاستعمال أن تكون موصوليَّةً، والمعنى على المصدريَّة أقوى في المجازِ، إذ هي تُشخِّصُ الافتراء.

إسنادُ فِعْلِ الضَّلالِ للشُّفعاءِ على الموصوليَّة، وللافتراء على المصدريَّة

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قوله تعالى: ﴿يَفْتَرُونَ﴾:

استُعمِلَ الفعلُ المضارعُ في قوله: ﴿يَفْتَرُونَ﴾؛ لبيانِ استمرارِهم على مُلابسةِ الافتراءِ بقولِهم: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾، فإنَّهم لو رُدّوا لَعادوا لما نُهوا عنه، وإنَّهم لكاذبون؛ ولتصويرِ أنَّ الافتراءَ كان وصفًا مُعتادًا لهم، يُلابسونَه ولا ينفكّون عنه.

الافتراءُ وصفٌ مصاحِبٌ للمُشركين لا ينفكُّون عنه

علَّةُ حَذْفِ مفعول: ﴿يَفْتَرُونَ﴾:

حُذِفَ مفعولُ: ﴿يَفْتَرُونَ﴾، فلم يقُل: (يفترونه)؛ للعموم؛ ولتعدُّدِ ما افتَرَوه وكَثْرته، فلا ينحصر الأمرُ بتعيينِ مفعولٍ واحدٍ، فمُقتضَى العمومِ حَذْفُ المفعولِ؛ ولاعتيادهمُ الافتراءَ والبُهتانَ، فالغرضُ: إثباتُ معنى الافتراءِ للفاعل، فالافتراءُ وصْفٌ ثابتٌ لهم، وهذا مِن بابِ تنزيل الفعلِ اللّازمِ منزلةَ المُتعدّي، وهو الأنسبُ بالفاصلةِ، وهو أمرٌ لفظيٌّ تابعٌ للمعنى الدَّلاليِّ.

الافتراء والبهتان عادة أهل الكفر، ولا تنفكّ أفعالهم عنه في كل حال

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يَنظُرون)، (يَنتَظِرون):

(يَنظُرون): مِن نظرَ الشَّيءَ، إذا صوَّب نظرَه ناحيةَ مجيئِه؛

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/118.

ترقُّبًا له، وتشوُّفًا لحضوره، سواءٌ حصل في ذلك مُهلةٌ وتراخٍ، أم كان فورًا وعاجلًا.

دلالةُ بناءِ (نَظَرَ) أسرعُ في الزَّمنيَّةِ مِنِ (انْتَظَرَ)

(يَنتَظِرون): مِن انتظر الشَّيءَ، إذا جعله محلَّ تَفقُّدِ نظرِه مَرَّةً بعد مَرَّةٍ، وتارةً بعدَ تارةٍ؛ توقُّعًا لحضوره، فالانتظار: نظَرٌ مُقدَّرٌ بالقوَّة لما هو مُتوقَّعٌ أن يَحصُلَ، فيَحتمِلُ الشَّكَّ واليقينَ تجاهَ مُتعلَّقِه، ولذا روعيَ فيه التَّكرارُ والإبطاءُ والإمهال، فهو ترقُّبٌ ونظرٌ خاصٌّ، مقترنٌ بما يُطلَب مجيئُه، فالانتظارُ أخصُّ مِنَ النَّظر، والنَّظرُ أعمُّ.

والخلاصة: أنَّ النَّظرَ يُرادُ منه: النَّظر فقط مِن غيرِ انتظارٍ، ويَرِدُ كذلك بمعنى الانتظار؛ لأنَّ المُنتَظِرَ يَستقبِلُ بنظرِه ما يرتقِبُ حضورَه، والانتظارُ لا يُستعمَلُ بمعنى النَّظر؛ لأنَّك قد تنتظر الشَّيءَ ولا تُدرِكُه، فلا يُدْرِكُه نظرُك حينَئذٍ، ولذا عبَّر هاهنا بـ (ينظرون) دونَ (ينتظرون)؛ لأنَّ المرادَ مِنَ الآيةِ: إدراكُهم للوعيدِ المذكورِ الَّذي ستُحَدِّق فيه أنظارُهم، فنفى بهذا التَّعبير احتمالَ عدمِ إدراكِهم للمُنتَظَر.

ودلالةُ بناءِ (نظر) أسرعُ في الزَّمنيَّةِ مِن (انتظر)، فبِناءُ (انتظر): (افتعل)، خاصٌّ في الدّلالة على الإبطاءِ وعدمِ السُّرعةِ، كـ (كَسَبَ) و(اكْتَسَبَ)، ولذا كان الانتظارُ مُشتملًا على معنى التَّكلُّف وقلَّة الأريحيَّة، فهذا من حيث الاستعمالُ، ومن حيث الآلةُ: فالنَّظرُ أعمُّ في مُتعلَّقاته، فأصلُ النَّظر: المقابلة، وذلك قد يحصُل بالعين إقبالًا بها نحو المنظور، وبالقلب إقبالًا بالفِكْر نحو المُفَكَّر فيه، ويكون باللَّمس ليدريَ اللّينَ مِنَ الخُشونة، ويكونَ نحو ما يتوقَّع، بمعنى الانتظار، "وأمّا الانتظارُ: فحصولُ المقابلةِ فيه بالمُثولِ والحضورِ والملابَسةِ مع المُنتَظَرِ[1].

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 75، وعلي النُّزهيُّ، الفروق اللّغويّة في تفسير الكلمات القرآنيّة، ص: 133.

(نَسُوه)، (تَركُوه):

النِّسيانُ: زوالُ ذِكْرِ الشَّيءِ في النَّفْس، ولازمُ النِّسيان التَّركُ والإهمالُ؛ لأنَّ تلاشيَ التَّذكُّر مُؤذِنٌ بعدم استحضارِ المذكورِ أصلًا، فتغيبُ صورتُه مِنَ الذِّهن، فيقعُ الإعراضُ لا عنه؛ لأنَّه في حكمِ غيرِ الموجودِ، بل يقع الإعراضُ عن كونه موجودًا أصلًا.

التَّرْكُ: لموجودٍ قائمٍ في الذِّهن، والنِّسيان: تَرْكًا لعدم وجودِ الشَّيء، وغيابِه عنِ الذِّهن

وأمّا التَّرك: فهو مغادرةُ ما هو مذكورٌ في النَّفس، وحاضرٌ في الإدراك؛ لأنَّ صورتَه الحاصلةَ في الواقعِ لم تتلاشَ أو تغِبْ عنِ العقل، ولكنَّه تُرِكَ عمدًا رَغمَ استحضاره، فالإعراضُ عنه إعراضٌ عن ذات الشَّيء، لا عن كونِ وجودِه.

فالتَّرك يكون لموجودٍ قائمٍ في ذهنِ التّاركِ، والنِّسيانُ يكون تركًا بسببِ عدمِ وجودِ الشَّيءِ، وغيابِه في ذهن النّاسي، فاستعمالُ النِّسيان هاهنا في معنى التَّرك مجازٌ، علاقتُه الملزوميَّةُ؛ لأنَّه متى وُجِدَ النِّسيان لَزِمَ عنه التَّرك، وعُبِّر بالنِّسيان في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾؛ ليَدلَّ على تمكُّنهم وعَراقتهم في الكُفرِ والإعراضِ، بحيث إنَّهم لم يتركوا الكتابَ وراءَ ظهورِهم فحسبُ، بل نَسوه ومَحَوا صورتَه ووجودَه مِن أنفسهم، فهو غيرُ موجودٍ بالنِّسبة لهم، كأنَّه لم يَبْلُغْهم[1].

(نُرَدُّ)، (نَرْجِع):

الرُّجوعُ: يجري على جِهةِ اليُسرِ وانتفاءِ الكُلْفَةِ، والرَّدُّ: عَوْدٌ يُلاحَظ فيه القَسْرُ وصعوبةُ الإمكان

الرَّدُّ: صَرفُ الشَّيء عن وجهه[2]، ونقلُه مِن حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغيره، ومنه: رَدَّ عليه الشَّيءَ: إذا لم يقبلْهُ أو خَطَّأَهُ[3]، فهو تحوُّلٌ مع حِدَّةٍ[4]، والرَّدُّ حاصلٌ في الذّات أو في الحال[5]، فمِنَ الرَّدِّ

(1) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 579، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 506.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 476.
(3) الجوهريُّ، الصّحاح: (ردد).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ردد).
(5) الرّاغب، المفردات: (رد).

بالذّات قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 28]، ومِنَ الرَّدِّ إلى حالةٍ كانَ عليها قولُه: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: 107]؛ أي: لا دافعَ ولا مانعَ له، وعلى ذلك: ﴿عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝٧٦﴾ [هود: 76]، وقد يشتملُ على معنى الجفاءِ والغِلْظةِ، كقوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [إبراهيم: 9]، وإنَّما جاء التَّعبير هاهنا: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾؛ لأنَّهم عَلِموا أنَّه عَوْدٌ على غيرِ القانونِ والعادةِ، فيَحتاجُ لِخَرْقٍ مُغالِبٍ، أو قَهْرٍ مُعْجِز، بدليل قولهم: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾، فهو رجوعٌ خاصٌّ على خلاف السُّنَنِ الَّتي عَلِموها مِنَ الرُّسل، وفي التَّعبير بالرَّدِّ دون الرَّجوع المَاحُّ إلى يأسهم مِن تحَقُّقِ ذلك، ولا سيَّما مع اقترانه بما يقتضي عِلْمَهم بصعوبةِ إمكانِه أو استحالتِه، وهو اعترافُهم بمجيء الرُّسل.

وعليه: فالرَّدُّ: عَوْدٌ يُلاحَظُ فيه الغَلَبَةُ والقَسْرُ، وعدمُ الخِطَّةِ، وصعوبةُ الإمكانِ، ويشتمل على معاني الجفاءِ والقَسْوةِ، وفيه معنى الفواتِ والتَّبديل.

والرُّجوعُ: العودُ إلى ما كان عليه؛ مكانًا أو صفةً أو حالًا، وسواءٌ كان رجوعُه بذاته، أو بجُزءٍ مِن أجزائِه، أو بفعلٍ مِن أفعالِه، يُقال: رجع إلى مكانه، وإلى حالةِ الفقرِ أو الغنى، ورجع إلى الصِّحَّةِ أو المرضِ، أو غيرِه مِنَ الصِّفات[1]، فهو عَوْدٌ إلى ما كان منه البَدْءُ[2]، ويُلحَظُ فيه معنى اليُسْرِ، والسَّلاسَةِ، والموافقةِ؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 230]، ومعنى التَّحَوُّلِ إلى الأصلِ؛ كقوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤﴾ [الأنبياء: 64]؛ أي: إلى عقولهم وفِطْرتهم بأصلها الأوَّلِ المستقيم، ومعنى القبولِ وعَدمِ التَّذمُّرِ؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فُصّلت: 50]، فقد استَعملَ الرُّجوعَ مع كونه كافرًا للدَّلالة على قبولِه وعدمِ تذمُّرِه إن حصلَ ذلك، وإن جرى عنده مَجرَى الفَرَضِ لا الحقيقةِ، فهو قابلٌ للفَرَضيَّةِ، غيرُ مُتَحَرِّجٍ منها، ولذا قَرَنَه بأعلى الثَّواب، وهي الحُسْنى، بخلاف صاحب الجنَّتين، في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّىٓ لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦﴾ [الكهف: 36]، فهو وإن كان كافرًا كسابقه، إلّا أنَّه جاء التَّعبيرُ في حقِّه بالرَّدِّ للدَّلالة على أنَّه يَفْتَرِضُ، وهو

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 478.
(2) الرّاغب، المفردات: (رجع).

مُتَذَمِّرٌ غيرُ قابلٍ حتَّى لمجردِ الفَرَضِ، وغيرُ مُستحسنٍ له؛ ولذا قَرَنه بثوابٍ أدنى مِنَ الآخَر، ولم يَرْبطْه بالثَّوابِ الأحسنِ المُطلَقِ مثله، فقال: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾. وعليه: فالرُّجوعُ عَودٌ يُلاحَظُ فيه موافقةُ الخِطَّةِ، والقانونِ، والسُّننِ المُستقرَّة، ويجري على جِهَةِ اليُسْرِ، والطَّواعيَةِ، وانتفاءِ الكُلْفَةِ والعَناءِ.

(نَعْمَل)، (نَفْعَل):

العملُ: كلُّ فعلٍ يكون مِن حيٍّ بقَصْد، فهو أخصُّ منَ الفعل؛ لأنَّ الفعلَ قد يُنسَبُ إلى الحيوانات الَّتي يقع منها الفعلُ بغيرِ قصدٍ، وقد يُنسَبُ إلى الجماداتِ، والعَمَلُ قلَّما يُنسَبُ إلى ذلك، ولم يُستَعمل العَمَلُ في الحيواناتِ إلّا في قولهم: البقر العَوامِلُ[1]. ولارتباطِ العمل بالقَصْد اقترنَ بإيجاد الأثرِ في الشَّيء، فيُقال: فلانٌ يعمل الطّينَ خَزَفًا، والأديمَ سِقاءً[2]، ولا يُقال: يفعل ذلك؛ لأنَّ الفعلَ يُعبَّر به عن القُدْرةِ على الشَّيء، مِن غيرِ نظرٍ للأثرِ والقَصْدِ، وهو عامٌّ لما كانَ بإجادةٍ وغيرِ إجادةٍ، ولما كان بعِلْمٍ أو بغير عِلْمٍ[3]، ولذا قال هاهنا: ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾؛ استحضارًا لاختيارِهم وتأثيرِهم في أعمالهم السّابقة، ولقصْدِهم في أعمالِهم بعد الرَّدِّ؛ أي: نعملُ بقَصْدِ الجزاءِ، وطَلَبِ العَفْوِ غيرَ الَّذي عملناهُ باختيارنا وعَمْدِنا، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصّافات: 96]؛ أي: خَلقكُم وخلقَ ما تُؤثِّرون فيه، بِنَحْتِكُم إيّاه أو صَوغِكم له[4].

العملُ أخصُّ مِنَ الفِعلِ، فالفِعلُ عامٌّ في الأحداثِ بقصدٍ أو من غير قَصدٍ، والعَمَلُ فِعلٌ مقصودٌ

(1) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 134.
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/241.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 134.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث عشر، سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 13 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-09-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 13 : سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-09-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6551762 بتاريخ 2023/12/20م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»